

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملء السموات ، وملء الأرض ،
وملء ما شاء ربنا من شيء بعد .

اللهم إِنَّا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونؤمن بك
ونتوكل عليك ، ونثنى عليك الخير كله ، نشكرك ، ولا نكفرك ، ونخلع ونترك
مَنْ يفجرك .

اللهم إِيَّاكَ نعبد ، ولك نصلى ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد ، نرجو رحمتك ،
ونخشى عذابك .

اللهم نعوذُ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وبك منك ،
لا نحصى ثناءً عليك ، أنت كما أثنيتَ على نفسك .

ونُصلى ونُسلم على عبدك ورسولك وصفوتك من خلقك ، وأمينك على وحيك ،
محمد بن عبد الله ، الذى أرسلته رحمة للعالمين ، وَحُجَّة على الناس أجمعين ،
بشيراً ونذيراً ، وداعياً إليك بإذنك وسراجاً منيراً ، فأدِّى الأمانة ، وبلغ الرسالة ،
ونصِّح للأمة ، وبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم من ربهم ، وترك أُمَّته على المحجَّة
البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

فصلُّ اللهم عليه وعلى آله ، وسلم تسليماً كثيراً ، كما صليتَ على إبراهيم ،
وعلى آل إبراهيم فى العالمين ، إنك حميد مجيد .

وارض اللهم عن أصحابه الغر الميامين ، الذين آمنوا به وعزَّروه ونصَّروه ،
واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون ، وعن الذين اتبعوهم بإحسان
إلى يوم الدين .

أما بعد ..

فإن أعظم نعم الله - تبارك وتعالى - علينا وأتمها وأبقاها : أن هدانا للإسلام . دين الله الذي أنزل به كتبه ، وبعث به رسله ، ولا يقبل ديناً غيره : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ (١) ، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

أكمل الله لنا ، وأتم به النعمة علينا ، وكان له سبحانه علينا بذلك أعظم الفضل والمنة : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ (٣) .

حرف أهل الكتاب قبلنا كتاب الله الذي أنزل إليهم ، ويدلوا دين الله الحق ، وكتبوا الكتب بأيديهم ثم قالوا : هذا من عند الله ، ليشتروا به ثمناً قليلاً ، ولو أن ألسنتهم بالكتاب ليحسب من الكتاب وما هو من الكتاب ، ثم حرفوا الكتاب مرة أخرى تحريفاً معنوياً ، بأن فسروه تبعاً لأهوائهم ، وخدمة لأغراضهم ، فضلوا وأضلوا .

وزاد الأمر خيالاً أنهم : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ (٤) يحلون لهم ما شاءوا مما حرم الله ، ويحرّمون عليهم ما أرادوا مما أحلّ الله ، فيطيعونهم طاعة العابد لمعبوده ، لا يسألون ولا يناقشون ، فقد جعلوا لهم سلطاناً مع سلطان الله عز وجلّ ، فتعالى الله عما يشركون .

بل جعلوا لمجامعهم المقدسة ، أو لرئيسهم الديني الأعلى (البابا) سلطة تغيير العقائد بالإضافة إليها أو الحذف منها .

وإننا لنحمد الله تعالى - نحن المسلمين - أن أنزل علينا كتاباً تولى حفظه

(٢) آل عمران : ٨٥

(١) آل عمران : ١٩

(٤) التوبة : ٣١

(٣) المائدة : ٣

بنفسه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (١) ، ﴿ لَا يَأْتِيهِ
الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلُ مَنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (٢) .

هو كما وصفه منزله جل ثناؤه : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى
النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٣) .

أنزله تعالى : ﴿ تَبَيَّنَا لَكُلِّ شَيْءٍ وَهْدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى
لِّلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤) .

فوضع به أسس العقيدة وقواعد الشريعة ، وكلليات الدين ومبادئه الأساسية
فى الاعتقاد والفكر والتشريع والسلوك .

ختم الله به الكتب ، كما ختم بمحمد - الذى أنزل عليه - الرسل ، وكلفه
- صلوات الله عليه - أن يُبينه للناس ، فكانت سُنَّته - صلى الله عليه وسلم -
البيان النظرى والتطبيق العملى لكتاب الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (٥) .

وهكذا فعل صلى الله عليه وسلم : علم وبيّن ، وبلغ وأرشد ، وطبق ونفّذ ،
وكان لنا فيه الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ،
فما ترك أمراً يقرئنا من الله تعالى ، إلا أمرنا به ، ولا أمراً يُبعدنا عن الله
تعالى إلا نهانا عنه ، نطقنا بذلك سُنَّته ، ودلّنا على ذلك سيرته ، ومضى على
ذلك خلفاؤه الراشدون ، وأصحابه المهتدون ، وبذلك قامت الحجّة ، واتضحت
المحجّة ، وعصم الله الأمة من الضلالة ، وحماها من الجهالة .

(٢) فصلت : ٤٢

(١) الحجر : ٩

(٤) النحل : ٨٩

(٣) المائدة : ١٥ - ١٦

(٥) النحل : ٤٤

وبهذا تحدّدت مصادر المعرفة بأحكام الإسلام ، وبعبارة أخرى : تحدّدت « المرجعية العليا » للإسلام .

فليست هي لمجمع من المجمع الدينية أو العلمية ، كما عُرِفَ ذلك عند النصارى ومجامعهم المسكونية المقدسة .

وليست هذه المرجعية لرئيس ديني ، مهما علا كعبه في العلم والتقوى ، فليس لدى المسلمين « بابا » يوصف بالقداسة والعصمة ، كما عند غيرهم .

وليست هذه المرجعية لمدرسة أو مذهب ، أو طريقة ، قلّها مقلّدون في مجال الاعتقاد والفكر ، أو في مجال الفقه والتشريع ، أو في مجال التربية والسلوك .

فما وُجِدَ من ذلك في تاريخ الإسلام وتراثه إنّما هو اجتهادات بشر غير معصومين ، في فهم الإسلام والعمل به ، يُؤخذ منهم ، ويُرَدّ عليهم ، مَنْ أَصَابَ منهم فله أجران ، وَمَنْ أَخْطَأَ فله أجر ، ما دام هذا الاجتهاد صادراً من أهله في محله ، مصحوباً بالنية الصالحة .

تحدّدت المرجعية العليا في الإسلام للمصدرين الإلهيين المعصومين : القرآن والسنة ، اللذين أُمِرنا باتباعهما ، وأن نرد إليهما ما تنازعنا فيه .

وإن شئت قلت : هو مصدر واحد ، أو مرجع واحد ، هو « الوحي الإلهي » ، سواء أكان وحياً جلياً متلوّاً ، وهو القرآن ، أم وحياً غير جلي ولا متلو ، وهو السنة .

أما عمل « العقل الإسلامي » في تفسير القرآن ، وشرح الحديث ، واستنباط الأحكام ، فلا عصمة له في مفرداته وجزئياته . ولكنه - في مجموعه - ضروري لفتح المغاليق ، وتبيين الطريق ، وترشيد الفهم ، وتسديد الاستنباط والاجتهاد ، حتى لا تزل الأقدام ، وتضل الأفهام .

ومن هنا حرص الإمام الشهيد حسن البنا - وهو يُقدّم أصوله في فهم الإسلام - أن يحدد مرجعيته من أول الأمر ، تحديداً لا لبس فيه ولا غموض ، فيبين « أن القرآن الكريم والسنة المطهرة هما مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام » .

وهذا المبدأ بما لا يجوز أن يخالف فيه مسلم رضى الإسلام ديناً ، فهذا موجب عقد الإيمان : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (١) .

وإنما يأتى الخلاف - وربما العناد والمشاقة - فى الفهم والتفسير ، لقصور فى العلم ، أو اضطراب فى الفكر ، أو خيب فى القصد ، أو كيد للدين .

لهذا كان من الأهمية بىمكان : التنبيه على أهم المعالم والضوابط ، وأخطر المزالق والمحاذير ، فى فهم الأصول المعصومين ، وتفسيرهما ، وأن تطيل النفس فى ذلك بعض الإطالة ، لخطورة الموضوع ، واختلاف المدارس الإسلامية فيه بين الإفراط والتفريط ، ودخول غير الإسلاميين فى المعركة للتشويش والتشويه .

هذا مع أن لنا دراسة خاصة فى فهم السُّنة النبوية والتعامل معها ، قد نشرها المعهد العالمى للفكر الإسلامى ، وتُعدّ دراسة أخرى مستقلة ومستفيضة فى كيفية التعامل مع القرآن الكريم أيضاً ، أرجو أن يمدنا الله تعالى بتوفيقه وعونه لإتمامها قريباً على وجه يرضيه .

فما ذكرته هنا فى شرح هذا الأصل لا يُغنى عن الرجوع إلى الكتابين المذكورين .

فالحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢) .

الدوحة : المحرم ١٤١٣ هـ - تموز (يوليو) ١٩٩٢ م . الفقير إلى الله تعالى

يوسف القرضاوى

* * *

(٢) آل عمران : ٨ ، ٩

(١) الأحزاب : ٣٦